

صورة الجزائر وأثرها في التراث الشعبي التركي (من خلال الأغنية الشعبية "جزاير" (Cezayir türküsü))

The image of Algeria and its impact on the Turkish folklore (through
the popular song "Jazayir" (Cezayir türküsü))

د. إسمهان لعربي *

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية / جامعة وهران 1 أحمد بن بلة / الجزائر
larismahene@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2023/02/14 تاريخ المراجعة: 2023/02/25 تاريخ القبول: 2023/05/12

الملخص:

أصبحت الجزائر ولاية عثمانية بناء على رسالة كتبها أعيان مدينة الجزائر يطلبون فيها إلحاق بلادهم بالدولة العثمانية سنة 1519 ؛ على عهد السلطان سليم الأول؛ وبموجب ذلك تبادل الجانبان التضامن والتعاون في المحن واستطاعا طوال ثلاثة قرون من الزمن صد الأعداء وحماية الأرض والعرض . أصبحت الجزائر منذ ذلك الحين ثغرا من ثغور بلاد الإسلام الشاسعة المترامية الأطراف مما أكسبها لقب " باب الجهاد " ؛ وكان السلاطين العثمانيون منذ أول يوم التحقت فيه الجزائر بالدولة العثمانية يحرصون على إرسال من يشاء من الشبان الأتراك للخدمة العسكرية هناك؛ سواء كجنود انكشارية في الجيش البري أو كمجاهدين في الأسطول البحري. استمر توافد هؤلاء الشبان حتى سقوط الجزائر في يد المحتل الفرنسي . وكان أول ما قام به هذا الأخير فور نقض معاهدة الاستسلام أن قام بترحيل جميع الأتراك

* د. لعربي اسمهان، أحمد بن بلة. جامعة وهران 1

الذين كانوا متواجدين في المدينة فرادى. لم يراعي الفرنسيون في ذلك من كانت لهم عائلات؛ إذ فصلوا عنهم في مشهد مؤلم تقشعر له الأبدان.

غادر الأتراك أرض الجزائر وعادوا إلى بلادهم ولم تعد الجزائر بالنسبة لهم سوى ذكريات وآلام يتجرعونها كلما تذكروا هول ما حدث لهم؛ جسدها في شكل أشعار ملحونة وحكايات شعبية دخلت ورسخت في تراثهم وعاداتهم. وأهم أثر باق إلى يومنا هذا في تركيا هي أغنية شعبية مشهورة تحمل اسم "جزاير" لها نصوص كثيرة تتجاوز المئة تغنى بها الأتراك في مناسبات عدة ، وهي منتشرة في مناطق كثيرة خاصة في الأناضول .

ظلت الجزائر تحضى بمكانة خاصة في قلوب الأتراك لأنها بالنسبة لهم أرض الشهادة يظهر ذلك من لقبها " باب الجهاد" أو "باب الجنة" كما يسميها سكانها. وهو وضع خاص لم يتكرر في باقي المناطق التي حكمها الأتراك العثمانيون. كما أن الجزائر تعد البلد الوحيد من بين البلدان العربية والإسلامية - (باستثناء فلسطين التي لها وضع خاص) - الذي تعرض للاحتلال المباشر الاستيطاني؛ مما ترتب عليه إجراءات كثيرة وجرائم لم تطبق في أي أرض أخرى غير الجزائر ، وعلى رأسها الترحيل التعسفي وفصل الأتراك عن عائلاتهم بعدما عاشوا عقودا طويلة فيها وأصبح وجودهم فيها راسخا أجيالا بعد أجيال ؛ وهذا ما يفسر عمق الألم الذي عانى منه هؤلاء مما جعلهم يترجمونه على شكل أشعار وحكايات رسخت في التراث الشعبي التركي وتناقلته الأجيال إلى يومنا هذا. وبذلك تكون الجزائر هي البلد الوحيد الذي يتمتع بمكانته الخاصة في التراث التركي دوناً عن غيره من الأقطار العربية والإسلامية الأخرى التي ضمتها الدولة العثمانية المترامية الأطراف.

الكلمات المفتاحية:

الدولة العثمانية؛ الإيالة الجزائرية؛ الأتراك الوافدين؛ صورة الجزائر؛ المخيال الشعبي؛ الأغنية الشعبية "جزاير"؛ العادات والتقاليد.

Abstract :

Algeria became an Ottoman province based on a letter written by the notables of the city of Algiers requesting the annexation of their country to the Ottoman Empire in the year 1519; During the reign of Sultan Selim I, according to which the two sides exchanged solidarity and cooperation in adversity, and for three centuries they were able to repel enemies and protect the land and honor; Since then, Algeria has become one of the vast outposts of the Islamic countries, which earned it



the title of the "Gate of Jihad". The Ottoman sultans, since the first day Algeria joined the Ottoman Empire, were keen to send whomever of the Turkish youths they wanted to military service there. Whether as Janissary soldiers in the land army or as Mujahideen in the naval fleet. The influx of these young men continued until the fall of Algeria in the hands of the French occupier. ; The first thing that the latter did, immediately after breaking the surrender treaty, was to deport all the Turks who were present in the city individually. The French did not take into account those who had families; They were separated from them in a painful, bone-chilling scene.

The Turks left the land of Algeria and returned to their country, and Algeria is no longer for them but memories and pains that they swallow whenever they remember the horror of what happened to them; They embodied it in the form of epic poems and folk tales that entered and became entrenched in their heritage and customs. And the most important trace that remains to this day in Turkey is a famous popular song called "Jazair", which has many texts that exceed a hundred, which the Turks sing on several occasions, and it is spread in many regions, especially in Anatolia.

Algeria continued to have a special place in the hearts of the Turks because for them, it is the land of martyrdom and the " Gate of paradise ". It is a special situation that was not repeated in the rest of the regions ruled by the Ottoman Turks. Also, Algeria is the only country among the Arab and Islamic countries that has been subjected to direct settlement occupation. Which resulted in many procedures and crimes that were not applied in any land other than Algeria, on top of which is the arbitrary deportation and the separation of parents from their families, which explains the pain of separation and nostalgia, which was translated in the form of poems and tales entrenched in the Turkish folklore. Thus, Algeria enjoyed its special place in the Turkish heritage, excluding it from other Arab and Islamic countries that were annexed by the sprawling Ottoman Empire.

Keywords :

Ottoman Empire; Algerian regency; expatriate Turks; the image of Algeria; the popular imagination; the popular song "Jazayer"; customs and traditions.

- مقدمة:

حكم الأتراك الجزائر ثلاثة قرون من عمر الزمن، حملوا إليها ثقافتهم في شتى مجالات الحياة اليومية، وتركوا بصمات لاتزال آثارها موجودة في بلادنا إلى يومنا هذا. ففي المطبخ لاتزال كثير من الأكلات تحمل أسماءها التركية، وفي اللهجة الجزائرية لاتزال العديد من الكلمات التركية الأصل راسخة فيها، كما لاتزال ألقاب الكثير من العائلات إلى يومنا هذا شاهدة على أجدادهم الأتراك.

ماتركه الأتراك العثمانيون في الجزائر من آثار لا يخفى على أحد، ولكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا: ما هو الأثر الذي تركته الجزائر في أذهان الأتراك، وهم يعودون إلى بلادهم بعدما ظلوا يتوافدون عليها كجنود ثلاثة قرون من عمر الجزائر العثمانية، ثم غادروها مكرهين مطرودين من طرف قوات الاستعمار الفرنسي فور سقوط مدينة الجزائر سنة 1830؟.

يهدف هذا المقال إلى البحث في التراث الشعبي التركي للتعرف على صورة الجزائر في أذهان الأتراك ومخيلتهم والأثر الذي تركته راسخا في تراثهم الشعبي. من خلال أغنية مشهورة ومنتشرة في كثير من أنحاء تركيا تحمل اسم "جزاير". سنحاول التعرف على المعاني التي وردت في عينة من نصوصها وما تحمله من دلائل ذات أساس تاريخي رغم طابعها الخيالي والاسطوري الغالب حالها حال الأشعار الشعبية الملحونة، وما مدى رسوخ الأغنية في الموروث الثقافي التركي سواء الأعراس التقليدية أو الفلكلور الشعبي.

تمت دراسة الأغنية من طرف بعض الباحثين الأتراك على وجه الخصوص؛ من أهمهم الباحث التركي F. Gülay Mirzaoglu الذي تناول الأغنية وأثرها في التراث الشعبي التركي وفصل في ذلك في مقال له نشر في إحدى المجلات التركية جاء بعنوان: "الأغنية الشعبية التاريخية "جزاير"، وهو مقال في غاية الأهمية حيث سلط الضوء على معظم الجوانب التي تفيد الموضوع، لكنه اهتم بالجانب الفولكلوري الشعبي ولم يفصل كثيرا في الجانب التاريخي. كما أنه ركز على وجهة النظر التركية للموضوع ولم يتطرق لوجهة النظر الجزائرية. أما بالنسبة للباحثين الجزائريين فقد نشر الدكتور محمود بن راس مقالا حول الأغنية في مجلة الأثر العدد 27 لسنة 2016 الصادرة عن جامعة ورقلة؛ وهو الباحث الجزائري الوحيد في ذلك على حد علمي؛ وقد تناول نموذجا واحدا للأغنية

ودرس أبحاثها من الناحية الأدبية؛ وما احتوته من معان مثل الألم والفراق وغير ذلك. وقد جاءت هذه الدراسة لتكمل الدراسات السابقة وتسلط الضوء على ما ينقصها محاولة الخروج بنظرة متكاملة حول الموضوع خاصة من جانب إضافة الرواية التاريخية الجزائرية التي كانت غائبة في الدراسات السابقة.

في سبيل ذلك اتبعنا عددا من المناهج التي تتناسب مع طبيعة المواضيع التي تناولناها في البحث؛ فقد استخدمنا المنهج التاريخي للوقوف على بعض الحقائق التاريخية وإثباتها، إضافة إلى المنهج التحليلي الذي أفاد في تحليل النصوص وإبراز الإشارات التاريخية الواردة فيها. إلى جانب المنهج الوصفي الذي استخدمناه في وصف المراسيم المصاحبة للعادات والتقاليد التركية التي أصبحت أغنية "جزائر" مكونا أساسيا وراسخا فيها.

1- تواجد العنصر التركي بالجزائر 1519-1830:

كانت الجزائر ولاية عثمانية خاصة تتمتع بتصنيف خاص في إطار ما يسمى "مستثنى اياالتلر" أي (الولايات الاستثنائية) وتتميز هذه الولايات باستثناءها من الأحكام العمومية التي تنظم بقية الولايات التابعة للدولة العثمانية؛ وهذه الولايات هي: مصر، اليمن، الحبشة، البصرة، بغداد، طرابلس الغرب، تونس، الجزائر. وأهم ما كان يميز هذه الولايات أنها لم تكن مقسمة وفق التقسيم الإداري الذي كان معمولاً به في بقية الولايات الأخرى. ولم تكن تخضع للقوانين التي طبقت في باقي أراضي الدولة العثمانية. بل تم الإبقاء على النظم المحلية التي كانت موجودة من قبل. وهذا الاستثناء يعود إلى أن تلك الولايات كانت تمتاز بخصوصيات معينة: كأن يكون معظم سكانها قبائل مترحلة، أو يتشكلون من أديان ومذاهب مختلفة، أو أنها تتمتع بموقع استراتيجي خاص، أو أنها بعيدة عن مركز الدولة إلى غير ذلك من الأسباب الخاصة (دراج محمد، 2010: هامش 51).

كانت الجزائر تتمتع بعدة خصوصيات جعلت منها ولاية خاصة وعلى رأس تلك الخصوصيات موقعها الجغرافي الذي جعلها في مواجهة الأخطار الخارجية باستمرار وهو ما أكسبها لقب "دار الجهاد" كما هو معلوم؛ ولعله السبب الذي جعل السلاطين

العثمانيين يقتدون بما فعله "السلطان سليم الأول عندما قبل رسميا إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1519؛ إذ أذن لخير الدين بأن يجمع ما يشاء من الشباب الأتراك وتجنيدهم للعمل في الجزائر ومنحهم امتيازات الانكشارية" (دراج محمد، 2010: 46). منذ ذلك الحين أصبح التحاق الأتراك بالجزائر يتم عن طريق التجنيد التطوعي على مستوى ساحل تركيا، من مينائي اسطمبول وإزمير، حيث كانوا يحملون من هاتين المدينتين، ثم يدمجون في نظام الأوجاق عند وصولهم إلى الجزائر، ثم يوجهون للخدمة إما في المحلة أو في النوبة بالنسبة للجيش البري (Vayssette, 2010 : 36).

كما كان للأتراك أيضا أن يختاروا الانضمام للبحرية والانخراط فيها إذا رغبوا في ذلك. وقد كان عدد الأتراك المجندين بشكل عام من موانئ تركيا مرتفعا في القرنين 16 و17 نتيجة لنشاط البحرية والجهاد البحري. وكان السلاطين العثمانيون يشجعونهم للذهاب إلى الجزائر كمجندين استنادا إلى فرمانات كانوا يصدرونها من حين لآخر. (أرزقي شويتم، 2009: 85).

إلا أن أعداد الأتراك المجندين تراجعت منذ نهاية القرن 18 نتيجة تقلص النشاط البحري وعوائده من أتاوات وغنائم، وتراجعت معه مكانة الأسطول الجزائري في البحر المتوسط (ناصر الدين سعيدوني، 2000: 252، 260)؛ حيث وصلت حركة التجنيد في عهد الداوي حسين آخر دايات الجزائر إلى أدنى مستوياتها تزامنا مع حالة التدهور والفوضى التي شهدتها معظم مفاصل الدولة، وهو ما عجل بسقوطها بسهولة في يد المحتل الفرنسي. إذ لم يصل عدد المجندين الأتراك بين عامي 1820 و1830 سوى 4154 مجندا. ضف إلى ذلك حالة الانفلات التي كانت شائعة في الجيش في تلك الفترة من عدم الالتزام بالعمل الموكل إليه، وعدم الالتحاق بوحداته، وظاهرة الهروب من الخدمة وغيرها من المشاكل (بوشنافي محمد، 2005: 103-104).

بعد إنزال القوات الفرنسية في سيدي فرج وهزيمة الجزائريين في معركة اسطاوالي، وسقوط برج مولاي حسن، أصبحت القوات الفرنسية تتحكم في المدينة، فرأى الداوي حسين عدم جدوى مواصلة القتال والاستسلام حقنا للدماء. في اليوم الموالي تم التوقيع على معاهدة الاستسلام وتسليم مدينة الجزائر في 5 جويلية 1830

(الشريف الزهار، دت: 175). بعدها غادر الداي حسين مدينة الجزائر على متن سفينة فرنسية تدعى "جان دارك" Jean Darc متوجها إلى نابولي أولا ثم استقر أخيرا في الإسكندرية (بوشنافي محمد، 2005: 107). وقد صحب معه 110 أشخاص من أفراد أسرته وحاشيته، كان ذلك في 10 جويلية 1830. (A.M. Perrot, 1830: 138).

2- مأساة ترحيل الأتراك من مدينة الجزائر:

بعد دخول الفرنسيين مدينة الجزائر واستقرارهم بها بدأوا تدريجيا في خرق معاهدة الاستسلام التي كان من أهم بنودها ؛ أن يؤمن الناس على أرواحهم وممتلكاتهم وأن لا يمس أحد من سكان المدينة بسوء بما فيهم الأتراك باعتبارهم من سكان المدينة ؛ ولكن بعد استسلام المدينة بفترة وجيزة ، قام الجنرال دي بورمون باختطافهم ونفيهم، وفصلهم عن نساءهم وأطفالهم . وكانوا يقتادون إلى السفن قبل ساعة الإبحار بأيام عديدة. وأشاع الفرنسيون أنهم فعلوا ذلك بحجة أنهم كانوا ينوون التآمر ضد الفرنسيين . وهو ادعاء مزعوم لا أساس له من الصحة لقد كانت قلة أعدادهم وكذلك ضعفهم لا يسمحان لهم بتدبير أية مؤامرة على حد تعبير حمدان خوجة (حمدان خوجة، 2006: 197). ويضيف حمدان خوجة وهو يصف لنا مأساة ترحيل الأتراك من مدينة الجزائر وفصلهم عن أسرهم التي هزت الفرنسيين أنفسهم، حيث يقول: " لقد رأيت بنفسى بعض الفرنسيين يولون ظهورهم للمشهد ويذرفون الدموع من الألم (حمدان خوجة، 2006: 197).

رحل الأتراك جميعهم من مدينة الجزائر سواء كانوا أصحاب عائلات أو بدون عائلات ، أو جنودا انكشاريين وأرسلوا إلى تركيا (عزيز سامح ألتر ، 1989: 652). لا يمكننا حصر عدد الأتراك المرحلين نظرا لانعدام أرقام إحصائية يمكن الوثوق بها ، أما الذين بقوا منتشرين في بعض المدن الجزائرية : كمستغانم ووهران وقسنطينة وعنابة وكان عددهم قليلا فقد أخضعهم الاحتلال الفرنسي للخدمة في فرق عسكرية مختلفة مثل فرقة المشاة والصبايحية (عزيز سامح ألتر ، 1989: 652).

رحل الأتراك حاملين معهم ذكرياتهم وأحزانهم ، ولم تبق الجزائر في نظرهم سوى ذكرى رسموا معالمها في المخيال الشعبي التركي، وتحولت صورة الجزائر مع مرور

الوقت إلى أشعار وحكايات وأساطير تغلغلت ورسخت في الموروث الثقافي والتقاليد الشعبية التركية.

3- صورة الجزائر في المخيال الشعبي التركي من خلال الأغنية الشعبية " جزاير":

تنتشر في عدة مناطق من تركيا - خاصة إقليم الأناضول المعروف بطابعه المحافظ وتنوع تراثه وتقاليده - أغنية شعبية تسمى " جزاير" لهذه الأغنية نصوص كثيرة تختلف من منطقة لأخرى (F. Gülay Mirzaoğlu, 2003: 117) وقد قام باحثون أترك بجمعها ونشرها على مراحل مختلفة ؛ كانت أول محاولة تلك التي قام بها الموسيقي راغب كاظمي حال Ragip Gazimihal سنة 1947 حيث نشرها في كتاب عنوانه: " الأغاني المسماة جزاير الباقية في الوطن". ثم جاء بعده فروح آرسنار Ferruh Ersunar ونشر نموذجا منها في كتابه: " فلكلور مدينة غازي عنتاب" سنة 1962، ثم قام عصمان أتيل Osman Atilla في سنة 1966 بنشر نموذج منها في كتاب عنوانه: "أغاني أفيون قره حصار" (F. Gülay Mirzaoğlu, 2003: 117).

لم يقتصر الاهتمام بهذه الأغاني على الأتراك فقط بل نجد باحثين آخرين اهتموا بها وبدراساتها نذكر منهم الباحث الألماني فريدريك غيس Friedrich Gies وقد نشر نموذجين منها وهما يخصان مدينة قونية في كتابه المطبوع سنة 1907م بعنوان: " روايات حول اللهجة الأناضولية " erzählungen zur kenntnis des Anatolischen türkisch وقد اجتهد في إعادة كتابتها بحروف لاتينية، ذلك أن كتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية المعروفة لم تكن قد اعتمدت بعد . وهما النصين نفسيهما اللذين أخذهما عنه الباحث الفرنسي جان دوني Jean Deny ونشرهما كملحق لمقالته: " أغاني الإنكشارية في الجزائر" سنة 1925م.

سنعتمد في هذا البحث بعض النماذج التي توفرت لدينا من هذه الأغنية محاولين المقارنة بين نصوصها، والوقوف على أهم المواضيع التي عالجتها. (أنظر التعليق رقم 1)

يتكرر في تلك النماذج الحديث عن السفن وهيئتها وانضمامها إلى الأسطول، أو تركها راسية في الميناء.

كما يظهر ذلك في المقاطع التالية:

"تشحم سفن الجزائر

تشحم وتلتحق بالأسطول" (نموذج فروح أرسنار 225 : 1988 , Şükrü Elçin)

"تشحم سفن الجزائر

تشحم وتترك راسية في الميناء" (نموذج فريدريك غيس 158 : 1925 , Jean Deny).

لعل المقصود بتشحم السفن تلك العملية التي تصاحب صناعة السفن أو ترميمها أو صيانتها وهو ما فصل فيه الباحث سرحان حليم في بحثه الأكاديمي الموسوم بـ : "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (1514-1830)" (سرحان حليم، 2007-2008: 85). أوروبما يكون المقصود بالتشحم أو التزيت هو تزويد السفينة بالزيت والشمع المستعمل في الإنارة ليلا. أو قد يكون المقصود بالزيت هو المستعمل في الأسلحة التي تزود بها السفن كالكرات أو السهام الملتببة التي تلقى على الأعداء (سرحان حليم، 2007-2008: 85).

كما نجد مقاطعا تتكرر في معظم النماذج عن الجنود الأتراك الذين يعيشون في مدينة الجزائر ووصفهم بالشجعان، والأسود الرابضة، وتضحياتهم بدمائهم في سبيل الله، كما يظهر في المقطع التالي:

"في الجزائر أشجار الصفصاف مصطفة

الأسود الشجعان تحتها رابضون

شبان شجعان ضحوا بدمائهم في سبيل الله

كم من شاب شجاع راح في ذلك الزمان"

(نموذج عصمان أتيل، 119, 120 : 2003 , F. Gülay Mirazoğlu)

كما نجد أبياتا تتكرر في عدة نماذج تصور لنا اندماج الأتراك الذين كانوا يأتون للجزائر في المجتمع ، وبقاءهم فيه، وكذلك تعلمهم اللغة العربية وتخليهم عن التركية، يظهر ذلك في المقاطع التالية:

"الشبان الذين يذهبون إلى الجزائر لا يعودون بل هناك يبقون"

(Jean Deny, 1925 : 158)

فيها آغاوات وبابات لا يتكلمون التركية ، تمتنع ألسنتهم عن النطق بها
(نموذج كاظمي حال ، (F. Gülay Mirazoğlu, 2003: 118)

وفي نموذج آخر نجد عبارة:

فيها آغاوات وبابات يعيشون

نسوا لغتهم التركية وبالعربية يتكلمون، (Jean Deny, 1925 : 158)

تعامل الأتراك باللغة العربية هو أمر ثابت تاريخيا ومعروف لدى الباحثين
المختصين في العهد العثماني بالجزائر ، حيث نجد معظم المراسلات المحفوظة في دور
الأرشيف والتي كانت تتم بين البابات وموظفيهم أو مع الداي بالجزائر مكتوبة باللغة
العربية.

من ناحية أخرى تظهر لنا صورة مدينة الجزائر التي بقيت في خيال هؤلاء
الشعراء، وهي المذكورة في عدة نماذج من الأغنية، تتمثل أولاها في منظر مدينة الجزائر
للقدامين إليها من البحر ، كما يبدو في البيت التالي: " شيئا فشيئا تظهر بيوت الجزائر ".
وفي موضع آخر تظهر لنا طوبوغرافية المدينة وشكلها المتدرج الممتد على الجبل، ثم
البحر الذي يحيط بها من الأسفل كما يصوره المقطع التالي:

" في أعلى المدينة الجبل الأسود الذي لا يمكن الهروب منه

وفي الأسفل البحر المحيط بها الذي لا يمكن اختراقه (Jean Deny, 1925 : 158)

في نموذج آخر من الأغنية نجد التعبير عن ذلك بوصف بيوت الجزائر العالية
كما يظهر في المقطع التالي:

" بيوت الجزائر عالية"

فيها آغاوات وبابات يعيشون.....". (Jean Deny, 1925 : 158)

في تلك النماذج نجد صورة أخرى للجزائر ماثلة في أذهان هؤلاء الشعراء
فوصفوها بشكل يوحي بعظمتها وجمالها وقهرها لأعداءها، وهي صورة عبر عنها هؤلاء
الشعراء بشيء من الخيال المختلط بالواقع: من بين تلك الأوصاف وصفهم للجزائر بـ:
السلطانة" وهو وصف قديم نجده في العديد من الآثار الشعرية في العهد العثماني؛

حيث تتكرر العبارة التركية "سلطان جزائر" أي الجزائر السلطنة في عدد من القصائد التي نشرها جان دوني باللغة التركية العثمانية ، وترجمها إلى الفرنسية.

(Jean Deny, 1925 : 111.112.116.130)

إضافة إلى وصفهم لشوارع مدينة الجزائر بأنها من رخام ، وهو وصف مبالغ فيه من وحي الخيال، كما هو واضح . كما نجد مثالا آخر على قهر الجزائر لأعدائها في المقطعين التاليين:

في الجزائر شبان شجعان يعيشون

عدو مجنون عن حماقة ينطق

أضحكت الصديق على العدو (أي سخرت من عدوك) : (F. Gülay Mirazoğlu, 2003 : 119,120),

كما تصور لنا تلك الأشعار أسلوب تنقية القمح عن طريق رفعه في الهواء ، وهي طريقة معروفة في الجزائر كما يظهره المقطع التالي:

"في الجزائر ينقى القمح في الهواء

ينقى ثم يوضع جانبا" (Jean Deny, 1925 :157).

صورة أخرى نجدها في تلك الأشعار تتمثل في الحرقه والألم اللذان يشعر بهما الأتراك وهم يتذكرون الجزائر وهي في محنتها بعد سقوطها في يد المحتل الفرنسي، إضافة إلى الحزن على فراقها والشوق إليها ؛ كما يظهر في الأبيات التالية:

إذا قلت الجزائر فالطرق مسدودة بالحجر

قولك هذا معناه الدموع من العيون تنهمر" (F. Gülay Mirazoğlu, 2003 : 119),

هل لي أن أبكي على ضياعك.....لأقم الحداد

الناس جميعهم يشناقون إليك" (F. Gülay Mirazoğlu, 2003 : 120)

في مقطع آخر نجد صورة لولاء الجزائر للدولة العثمانية باعتبارها قطعة منها، يأتي هذا الولاء من طرف الجنود الأتراك الذين يتكرر ذكرهم في جميع النماذج ، ويظهر لنا هذا الولاء في ذكر الهلال الذي هو رمز الدولة العثمانية والأراضي التابعة لها، كما يوضحه البيت التالي:

"في الجزائر شبان شكل الهلال في حواجبهم" (Jean Deny , 1925 :158)

كانت هذه بعض النماذج من أغنية "جزاير"، ويذكر الباحثون أنه يوجد في عموم إقليم الأناضول 100 نموذج من هذه الأغنية تختلف عن بعضها في الكلمات والألحان. (Fatih Şayhan, 2012: 96)

ثم إن الحديث عن الأغنية ونماذجها الكثيرة يجرنا إلى الحديث عن أمور أخرى مرتبطة بها ألا وهي القصص الشعبية والأساطير التي حيكت حول المناسبات التي ارتبطت بتلك الأشعار وأدت إلى نظم كلماتها. وهي متنوعة تنوع نصوص تلك الأشعار والمناطق التي تختص بكل نموذج منها.

في منطقة أفيون قره حصار قصة الأغنية هي كالتالي: "في أيام سليمان القانوني دخلت الجزائر تحت حكم العثمانيين ، وبعد ذلك احتلها الفرنسيون سنة 1830 ، أثناء الغزو حدثت معارك مع الفرنسيين سقط أثناءها عدد من الأتراك، من بين هؤلاء الشهداء شخص اسمه محمد ينحدر من قرية تسمى دينار (حاليا هي بلدية تقع جنوب محافظة أفيون قره حصار). كما سقط إلى جانبه شبان آخرون ينتمون إلى قرية يايلاباغی (yaylabağı) هي بلدة تابعة لبلدية الإحسانية التابعة بدورها لمحافظة أفيون قره حصار) وعندما وصل خبر استشهادهم إلى ذويهم، أقام الجميع الحداد عليهم واستمر أثر هذا الحزن زمنا طويلا في المنطقة. بالنسبة لمحمد المذكور كانت له خطيبة وبمجرد وصول خبر استشهاده ذهب عقلها وأصبحت بالجنون. وكانت كل يوم تخرج إلى تلة القرية وترثيه بتأثر وحرقة بالغين ، بقيت على هذا الحال مدة من الزمن ، إلى أن ماتت ، فبكاها أهل القرية وهم يحملونها إلى قبرها، (F. Gülay Mirazoğlu, 2003: 120). وهكذا أصبحت تلك المراثية مع مرور الزمن أغنية شعبية يتغنى بها أهل أفيون قره حصار

(Muzaffer uyan, 2004 : 418). كما هو واضح هي حكاية تختلط كثيرا بالخيال، حتى وإن استندت إلى وقائع تاريخية حدثت بالفعل. حالها حال أية حكاية أو أسطورة شعبية. لم يقتصر التغني بأغنية "جزاير" « Cezayir türküsü » والرقص على أنغامها على عامة الناس بل تعدت ذلك لتكون مصدر إلهام للشاعر التركي فاضل حسنو دغلارجه Fazıl Hüsni Dağlarca الذي اختارها عنوانا لقصيدته التي نشرها عام 1961

تعاطفا مع الثورة الجزائرية ، والتي جمع فيها عدة رموز لخص من خلالها قصة الجزائر منذ العهد العثماني مروراً بالاحتلال الفرنسي إلى معاناة المجاهدين وهم تحت التعذيب، والشهداء وغيرها من الرموز التي تشتهر بها الجزائر مثل الصحراء ورمالها ونخيلها وتمرها. وفيما يلي بعض المقاطع من القصيدة:

يا الله

أقولها وصوتي الخافت يرتعش

أيتها المياه الجارية

يترسب صفاؤك عن ذكرياتي البعيدة

وتهمس في قلبي أمواج قراصنتك الشهيرة .

في وجهي تلمع سيوف سلاطينك العظماء

هنا الجزائر، أيتها الصحراء

تحمل جمالك منذ آلاف السنين؛ عن الأجداد

الحب ، العقل، شخصيتي،...

أيها التمر لم يعد لك طعم بعد اليوم.

كيف تصبر على وحدتك

كيف سينمو لون جريدك الأخضر الغامق

ضاع جمالنا

أيها التمر، تؤلني يداي ورجلاي

هل تسمع صراخ الرمال وهي تداس (يقصد من طرف المستعمر)

أيتها الأم قومي

أيتها المرأة امشي

أيها الابن اركض

نحو التحرير المحتوم

هاهم الآن قبيحون كهياكل الذئاب

موتاي على جبينهم ضُربوا

وفي عرض البحر ألقوا
لم تعد حريتهم موجودة بعد اليوم
أيها الليل خذ موتاي
أيها التراب دعني، لأذهب، لأذهب،
على خطى من سبقوني وكلي انتقام
لأسير بين الرايات الصغيرة والقديمة، والممزقة.
أيها العملاق من أين خرجت في الظلام مُحَمَّرًا
على كتفك الغزلان والأمهر والأياثل
على كتفك الرضع، الأولاد، البنات.
على كتفك وطني
أيها العملاق، من أين خرجت مخضرا في هذا الظلام المنقش عن النور
في يدك الخبز
في يدك العدل
في يدك علم الحرية (Fazıl Hüsnü Dağlarca, 1961 :3-9)
4- ارتباط أغنية "جزاير" بالتقاليد الشعبية التركية":

ارتبطت الأغنية بالمناسبات التي تتجسد فيها معاني الوداع أو فراق الأهل والأحباب؛
لذلك نجدها تدخل كمكون أساسي في الأعراس و الفلكلور الشعبي التركي . ففي العرس
يتجلى فراق العروس لأهلها ومغادرتها بيت أبيها الذي نشأت وعاشت فيه طوال حياتها
لتلتحق ببيت جديد وتستقبل حياة جديدة في بيت زوجها. وفي الفلكلور الشعبي تظهر لنا
الأغنية كمكون من مكونات تقليد: "مجلس الياران" المشهور في الأناضول، الذي يعبر
عن لقاء دوري يحدث بين سكان القرية يجتمعون فيه ويأكلون ويتسامرون ثم يفترون
ويذهب كل منهم إلى بيته فتأتي الأغنية لتصاحب لحظة الوداع على أمل اللقاء في الدورة
المقبلة .

أ- الأعراس:

تدخل أغنية "جزاير" كمكون أساسي من مكونات العرس التقليدي التركي خاصة في منطقة الأناضول، حيث تؤدي شفويا دون موسيقى بشكل أساسي في ليلة الحناء. كما تؤدي أيضا أثناء الذهاب لإحضار العروس من بيت أبيها، وفي طريق العودة وهم يأخذونها إلى بيت زوجها. كما تؤدي أيضا أثناء مراسيم الاحتفال بالعرس؛ حيث يرقص الشبان على أنغامها، أو يكتفون بعزف ألحانها بالآلات الموسيقية فقط. ونجد هذا التقليد منتشرا في مناطق مختلفة إلى جانب مدينة أفيون قره حصار (Afyokarahisar، نذكر منها منطقة غازي عنتاب، وأرزيجان، وبورصة، وما جاورها (F. Gülay Mirazoğlu, 2003: 120),

أما في منطقة دنيزلي Denizli الواقعة جنوب غرب تركيا، فتعزف ألحان الأغنية في اليوم الأخير من العرس على الآلات الموسيقية (كدلالة على توديع العروس)، حيث يحمل الشبان الذكور راية وهم ذاهبون إلى بيت العروس، ويقومون بإطلاق طلقات نارية في الهواء في طريقهم إلى هناك، وهم يغنون "أغنية جزاير" ويعزفون ألحانها، والشبان يمينا ويسارا يرددون الأغنية ويرقصون على أنغامها. كما تؤدي الأغنية مرة أخرى عندما تصعد العروس على الحصان وعندما تنزل أيضا، (F. Gülay Mirazoğlu, 2003: 120) للأغنية المؤداة في الأعراس رقصة خاصة بها تسمى باسمها "رقصة جزاير" لها طريقة خاصة لأداءها ترقص أثناء أداء الأغنية نفسها، إذ تؤدي الرقصة من طرف الذكور على أنغام المزمارة والدف، حيث يقوم إثنان أو أربعة أشخاص بأداءها. أما في منطقة كوكسون فتؤدي هذه الرقصة مرفقة بأنغام الزنرة والطبل (F. Gülay Mirazoğlu, 2003: 120),

ب- مجلس الياران Yaran meclisi:

يشتهر في عدة مناطق من تركيا وخاصة الأناضول تقليد يسمى مجلس الياران. وهو نوع من أنواع التسلية الشعبية؛ يأتي عبارة عن جلسة يجتمع فيها عدد من الأصدقاء من أجل السمر والتحدث. (ولهذا التقليد جذور تاريخية ترتبط بتاريخ الأتراك عندما كانوا يعيشون في شكل قبائل يحكمها الولاء للقائد كبير القبيلة والرموز التي تمثل ذلك؛ على رأسها الكانون الذي يتم الاجتماع حوله وغير ذلك من التقاليد). في بعض

المناطق من الأناضول لا سيما منطقة جانكري Çankırı تجمع هذه المجالس بين الغناء، الموسيقى، والرقص الشعبي بمختلف أنواعه (Kadir Çayır, 2011 :80).

ينعقد مجلس الياران بشكله التقليدي في أشهر الشتاء من كل سنة ويختار لذلك يوما من أيام الأسبوع ، ويكون في العادة مساء يوم الأربعاء ، أو مساء يوم السبت ويمتد إلى فجر يوم الأحد. يبدأ المجلس في المساء بعد صلاة العشاء ويستمر إلى صلاة الصبح ؛ حيث ينفض المجلس مباشرة بعدها. في السابق كان مجلس الياران موجودا في كل بيت حيث تهيء له إحدى زوايا المنزل. أما اليوم ففي القرى تخصص له قاعة تسمى "قاعة القرية". أما في المدن فتتكفل به مؤسسات الدولة أو الجمعيات ويطلق عليها اسم "بيت الياران". (Kadir Çayır, 2011 :85).

يتكون مجلس الياران من 24 شخصا. هم كالتالي: الباش آغا الصغير، الباش آغا الكبير، رئيس الياران ، الشاوش (مهمته تقديم الدعم المادي للياران من إشعال للكانون وغيرها من الخدمات)، الموسيقيون ثم ممثلي الياران. (Sadik Softa, 2009: 119, 120)..

يتخذ مجلس الياران شكل مستطيل يفرش بالسجاجيد. في صدر القاعة عند الدخول من الباب يقابلنا الكانون (حاليا يضعون مكانه شيء يرمز له) على يمينه يجلس الباش آغا الكبير ، وعلى يساره الباش آغا الصغير. ثم يفرش المجلس في أقسامه الثلاثة الممتدة على أطراف المستطيل الثلاثة ماعدا جهة الباب بأفرشة من أجل الجلوس . يجلس الباش آغا الصغير والكبير في صدر المجلس وبينهما رئيس الياران ويتوزع الباقي على الجانبين. (Ahmet Absarilioğlu, 2012 :150).

تأخذ الجلسة شكلها بممارسة مجموعة متنوعة من المراسيم منها عزف الموسيقى وتقديم القهوة للجالسين ، وأداء مجموعة من الأغاني الخاصة ، من بينها أغنية "جزائر" التي تعزف في الساعات المتقدمة من الليل عندما تنتهي كل المراسيم ويبدأ الضيوف بمغادرة المجلس ويستمر عزفها حتى مغادرة آخر ضيف ، ثم يلتقي أعضاء الياران الرئيسيون في الأخير وينفذون مراسيم تسليم رمزي للآلات الموسيقية لرؤساء

الياران الجدد الذين سيتولون رئاسة الجلسة في المرة المقبلة التي سينعقد فيها المجلس وتنتهي الليلة بأداء أغنية "جزاير" الكل بصوت واحد. (Kadir Çayır, 2011: 85).

-خاتمة:

لا يسعنا ونحن نطلع على أثر الجزائر وصورتها في التراث الشعبي التركي إلا أن ندرك أهميتها بالنسبة للأتراك والأثر العميق الذي تركته في نفوسهم ومخيلتهم، وهو ما يفسره الانتشار الواسع للأغنية الشعبية "جزاير" وما يرتبط بها من مظاهر فلكلورية رسخت في الثقافة الشعبية التركية وأصبحت جزء منها.

لا يمكننا تفسير هذا الأثر إلا إذا نظرنا لخصوصية الجزائر وتميزها عن باقي الولايات العثمانية؛ هذه الخصوصية التي جعلت الأتراك من مختلف أرجاء تركيا يلتحقون طواعية بهذه الأرض الطيبة التي اكتسبت لقب "باب الجهاد" أو كما يسميها أهل الجزائر "باب الجنة" طالبين الشهادة في سبيل الله. ويوم غادروها كان خروجهم منها مأساويا وفريدا من نوعه لم يتكرر في أية مقاطعة أخرى بعد تقسيم تركة الدولة العثمانية من طرف قوى الاستعمار على اختلافها؛ حيث كانت الجزائر البلد الوحيد من بين البلدان العربية والإسلامية - (باستثناء فلسطين التي لها وضع خاص) - التي تعرضت للاحتلال الاستيطاني المباشر مما انجر عنه إجراءات كثيرة وجرائم لم تطبق في غيرها من المناطق كانت بدايتها الترحيل التعسفي لمكون راسخ و أساسي من مكونات التركيبة السكانية لمدينة الجزائر ألا وهو المكون التركي الذي كانت له مكانته الاجتماعية والعسكرية الهامة. ولعل ذلك ما جعل المؤرخ التركي عزيز سامح ألتير يعبر عنه بالجملة العفوية التالية: "للاأتراك عادات غريبة، فإذا أجبر التركي على ترك مكان ما، وإذا أهين من قبل ملة من الملل، فإنه يظل محبا ومتعلقا بذلك المكان."

-التعليق:

التعليق رقم 1:

لسماع أحد ألحان أغنية "جزاير" والرقصة الخاصة بها والتي تحمل إسمها، أنظر رابط الفيديو التالي وهو مقتطف من أحد الأعراس التركية:

<https://www.youtube.com/watch?v=EgfAlmODVUA>

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أثير عزيز سامح، (1989)، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة محمود علي عامر، (دط)، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية.
- 2- بوشنافي محمد، 2005، الداوي حسين وسقوط الإيالة الجزائرية (1818-1830)، مجلة عصور، مخبر البحث (مصادر وتراجم)، جامعة وهران، عدد 6-7، ص ص 95-106.
- 3- خوجة حمدان بن عثمان، (2006)، المرأة، تعريب وتقديم وتحقيق محمد العربي الزبيري، (دط)، الرغاية، الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
- 4- دراج محمد، (2010)، "تأسيس إيالة الجزائر"، مجلة عصور، مخبر البحث التاريخي (مصادر وتراجم)، جامعة وهران، عدد 16، ص ص 26-32.
- 5- سرحان حليم، (2007-2008)، تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (1514-1830) من خلال المصادر التاريخية والأثرية، مذكرة غير منشورة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر.
- 6- سعيدوني ناصر الدين، (2000)، ورقات جزائرية، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
- 7- الشريف الزهار، (دت)، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر، تحقيق: توفيق المدني، ط2، الجزائر، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
- 8- شويتام أرزقي، (2009)، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني، (1519-1830)، دط، الجزائر، دار الكتاب العربي.

- 9- Absarılioğlu Ahmet, (2012), Dünya kültür mirasımız Yaran, Çankırı, Çankırı Valiliği kültür yayınları.
- 10- Çayır Kadir, (2011), Çankırı Yaran Meclisinde Bağlamanın rolü, Çankırı Karatekin üniversitesi Sosyal Bilimler estitüsü Dergisi, cilt 2, sayı 2, ss 79-92.



- 11- Dağlarca Fazıl Hüsnü,(1961), Cezayir türküsü, İstanbul, Fakülteler matbaası.
- 12- Deny Jean,(1925), Chansons des janissaires turcs d'Alger (fin du 18 eme siecle), Mélanges René Basset , n°11, T2, Paris, publication de l'institut des hautes études marocaines, edition Ernest Leroux, p p 33-175.
- 13- Elçin Şükrü ,(1988), Akdeniz'de ve Cezayir'de türk halk şairleri, Ankara, Türk kültürünü araştırma entitüsü, yayınları.
- 14- Mirzaoğlu , F. Gülay, (2003), Bir tarihi türkü “Cezayir” Türkbilig dergisi, Hacettepe üniversitesi edebiyat fakültesi, Ankara , sayı 6, (ss 117- 126.)
- 15- Perrot , A.M., (1830), La conquete d'Alger (ou relation de la compagne d'Afrique), (s n e) , Paris , H. Langlois fils, Editeurs.
- 16- Şeyhan Fatih, (2012) , Kırım-Karay türkülerinin Anadolu Türkleriyle söz benzerlikleri açısından mukayesesi, Millî Folklor dergisi , , Yıl 24, Sayı 96 , ss (94-104)
- 17- Softa Sadık, (2009), Tarih yansımalarıyla yaran meclisi ve ahilik, Çankırı araştırmaları dergisi , sayı 4, ss 117-142.
- 18- Uyan Muzaffer, Yuksel Ibrahim,(2004), Anadolunun kilidi Afyon, Afyon, Samih ofest.
- 19- Vayssette, (2010), Histoire de Constantine sous la domination turque (1517-1837), Presentation de Ouarda siar-Tengour, (s n e), Constantine, Algerie, Média-Plus.